

آخر فيجعل له وجوداً فوق الدنيا ، لا تصل الدنيا اليه بغيرها وغناها ، ولا سعادتها وشقائها ، لأنَّه وجود الحب لا وجود العمر ؛ وجودُ سحرى ليس فيه معنى للكلمات فلا فرق بين المال والتراب ، والأمير والصلوک ؛ إذ اللغة هناك إحساس الدم ، وإذا المعنى ليس في أشياء المادة ولكن في أشياء الارادة .

وهل تحيا الألفاظ مع الموت ، فيكون بعده لمال معنى وللتراب معنى ؟ ... هي كذلك في الحب الذي يفعل شيئاً بما يفعله الموت في نقله الحياة إلى عالم آخر ، يَمْدَأْ أن أحد العالمين وراء الدنيا ، والآخر وراء النفس .

تحت يد الأخِت المدودة ينام الطفل المسكين ، ومن شعوره بهذه اليد خفٌّ ثقل الدنيا على قلبه .

لم يبال أن بنده العالم كله ، مادام يجد في أخيته عالم قلبه الصغير . وكأنه فرخ من فراخ الطير في عشه المعلق ، وقد جمع لمجه الغضَّ الأحمر تحت جناح أمه ، فأحسَّ أهناً السعادة حين ضيق في نفسه الكونَ العظيم وجعله وجوداً من الريش . وكذلك يسعد كل من يملك قوةَ تغيير الحقائق وتبديلها ، وفي هذا تفعل الطفولة في نشأة عمرها ما لا تفعل بعضه معجزاتُ الفلسفة العليا في جملة أعمamar الفلاسفة .

وما صنع الذين جنوا بالذهب ، ولا الذين فتنوا بالسلطة ، ولا الذين هلكوا بالحب ، ولا الذين تحطموا بالشهوات — إلا أنهم حاولوا اعتبراً أن يَرْشُوا رحمةَ الله لتعطيمهم في الذهب والسلطة والحب والشهوات ما نوَّلتْه هذا الطفل المسكين النائم في أشعة الكواكب تحت ذراع كوكبِ روحه الأرضي . ألا إن أعظم الملوك لن يستطيع بكل ملكه أن يشتري الطريقة المنيئة التي ينبض بها الساعة قلبُ هذا الطفل .

وقفت أشهد الأطفالين وأنا مستيقن أن حولهما ملائكة تصعد وملائكة تنزل ، وقلت هذا موضع من مواضع الرحمة ، فإنَّ الله مع المنكسرة قلوبهم ، ولعلَّ أن أتعرض لنفحة من نفحاتها ، ولعلَّ ملكاً كريماً يقول : وهذا بائس آخر : فيرثُني بمحاجه رفةً ما أحوج نفسي إليها ، تتجدد بها في الأرض لمسة من ذلك النور التلائِلُ فوق الشمس والقمر .

أحلام في الشارع

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

على عتبة (البنك) نام الغلام وأخته يفترشان الرخام البارد ، ويتحفان جوًّا رَخاميًّا في برده وصلابته على جسميهما . الطفل مُتَكَبِّبٌ في ثوبه كأنه جسم قُطع وركبت أعضاؤه بعضها على بعض ، وسُجِّيتْ بثوب ورُمِيَ الرأس من فوقها فمال على خده .

والفتاة كأنها من المهزال رسم مُخطَّط لامرأة ، بدأها المصور ثم أغفلها إذ لم تعجبه . كتب الفقر عليها للأعين ما يكتب الذبول على الزهرة : أنها صارت قَشًا . . .

نائمة في صورة ميَّتة ، أو كميَّة في صورة نائمة ؛ وقد انكسَب ضوء القمر على وجهها وبقي وجه أخيها في الظل ؛ كأن في السماء ملكاً وجَّه المصباح إليها وحدها إذ عرف أن الطفل ليس في وجهه علامة هم ، وأن في وجهها هي كلَّ همها وهم أخيها . من أجل أنها أُنْتَيْتَ قد خُلِقَتْ لتلد ، خلق لها قاب يحمل المهموم ويدها ويربها .

من أجل أنها أُعْدَتْ للأمومة ، تتألم دائمًا في الحياة آلامًا فيها معنى انفجار الدم .

من أجل أنها هي التي تزيد الوجود ، يزيد هذا الوجود دائمًا في أحزانها .

وإذا كانت بطبيعتها تقاسي الألم لا يُطاق حين تلد فرَحَها ، فكيف بها في الحزن . . . !

وكان رأس الطفل إلى صدر أخيته وقد نام مطمئناً إلى هذا الوجود النسوى الذي لا بد منه لكل طفل مثله مadam الطفل إذا خرج من بطنه أمه خرج إلى الدنيا وإلى صدرها معاً . ونامت هي ويدها مرسلة على أخيها كيد الأم على طفاتها . يا إلهي ! نامت ويدها مستيقظة !

أها طفلاً ؟ أم كلَّها تمثال للإنسانية التي شقيت بالسعادة فعوْضها الله من رحمته لا تجد شقياً مثاها إلا تضاعفت سعادتها به ؟ تمثالان يصوران كيف يسرى قلب أحد الجبيدين في الجسم

بالضرب ما كان يمسك رمثنا من الاحتمال والصبر .
هؤلاء الأطفال يتضورون شهوة كلما أكلوا ليعودوا فيأكلوا ،
ونحن نتضور جوعاً ولا نأكل ، لنعود فنجوع ولا نأكل ؟
وهم بين سمع أهليهم وبصرهم ؟ ما من آنة إلا وقعت في قلب ،
وما من كلمة إلا وجدت إجابة ؟ ونحن بين سمع الشوارع وبصرها ،
أنين ضائع ، ودموع غير مرحومة !

آه لو كبرت فصرت رجلاً طويلاً عريضاً ! أتدرى
ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— إنني أخنق بيدي كل هؤلاء الأطفال !

— سُوءة لك يا أحمد ، كل طفل من هؤلاء له أم مثل أمها
التي ماتت ، وله أخت مثلى ؟ فما عسى ينزل بي لو شكلتك إذا
خنقك رجل طويل عريض ؟

— لا ، لا أخنقهم ؛ بل سأرضيهم من نفسي ؟ أنا أريد أن
أصير رجلاً مثل (المدير) الذي رأيناه في سيارته اليوم على حال
من السطوة تعلن أنه المدير . . . أتدرى ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— أرأيت عربة الاسعاف التي جاءت عند الظهر فانقلبت
نعشًا للرجل المحرم المحطم الذي أغمى عليه في الطريق . ؟ سمعتهم
يقولون : إن المدير هو الذي أمر باتخاذ هذه العربة ، ولكنه
رجل غفل لم يتعلم من الحياة مثلنا ، ولم تتحكمه تجارب الدنيا
فالذى يموت بالفجاعة أو غيرها لا يحييه المدير ولا غير المدير ،
والذى يقع في الطريق يجد من الناس من يتذرون له لتجده
ويساعده بقلوب إنسانية رحيمة ، لا بقلب سوق عربة ينتظر
المصيبة على أنها رزق وعيش .

إن عربات الاسعاف هذه يجب أن يكون فيها كل . . .
ويجب أن تحمل أمثالنا من الطرق والشوارع إلى البيوت
 والمدارس ؛ وإن لم يكن للطفل ألم تطعمه وتؤويه فلتُصنع له ألم .
 كل شيء أراه لا أراه إلا على الغلط ، كأن الدنيا منقلبة
 أو مدبرة أدبارها ، وما قط رأيت الأمور في بلادنا جارية على
 بخارها ؛ فهولاء الحكم لا ينبغي أن يكونوا إلا من أولاد صالحى
 الفقراء ، ليحكموا بقانون الفقر والرحمة ، لا بقانون الغنى والقسوة ،
 وليتقحموا الأمور العظيمة المشتبه بنفوس عظيمة صريحة قد
 نبتت على صلابة وبأس ، وخلق ودين ورحمة ؛ فإنه لا يهزه في

وظهر لي بناء (البنك) في ظلمة الليل من مرأى الغلامين -
أسود كالطا، كأنه سجن أقفل على شيطان يمسكه إلى الصبح ،
ثم يفتح له لينطلق معمراً ، أى مخرباً . . . أو هو جسم جبار
كفر بالله وبالإنسانية ولم يؤمن إلا بنفسه وحظوظ نفسه فمسخه
الله بناء ، وأحاطه من هذا الظلام الأسود بمعنى آثمه وكفره .
ياجبيا ! بطنان جائعان في إطار بالية يبتنان على الطوى والمهم ،
ثم لا يكون وسادها إلا عتبة البنك ! ترى من الذى لعن
(البنك) بهذه اللعنة الحية ؟ ومن الذى وضع هذين القلبين
الفارغين موضعهما ذلك ليثبت للناس أن ليس البنك خزائن
حديدية يملؤها الذهب ، ولكنه خزائن قلبية يملؤها الحب .. ?

* * *

وقفت أرى الطفلين رؤية فكري ورؤية شعر معاً ، فإذا الفكر
والشعر يتدان بيني وبين أحلامهما ، ودخلت في نفسين مضموماً لهم
واشتد عليها الفقر ، وما من شيء في الحياة إلا كادها وعاشرها ؛
ونمت نومي الشعرية

قال الطفل لأخته : هامى فلنذهب من هنا فنقف على باب
(السيما) تفرج مما بنا ، فترى أولاد الأغنياء الذين لهم أب وأم .
انظرى هاهم أولاء ثردى عليهم أثر الغنى ، وترى فيهم روح
النعمة ؛ وقد شبعوا . . . إنهم يلبسون لما على عظامهم ، أما نحن
فنلبس على عظامنا جلدًا بكل الحذاء ؛ إنهم أولاد أهليهم ، أما نحن
فأولاد الأرض ؛ همأطفال ، ونحن حطب إنسانى يابس ؛ يعيشون
في الحياة ثم يموتون ، أما نحن فعيشنا هو سكرات الموت ، إلى
أن نموت ؛ لهم عيش وموت ، ولنا الموت مكرراً .

ولى على ذلك الطفل الأبيض السمين ، الحسن البزة ، الأنبل
الشاردة ، ذاك الذي يأكل الحلوى أكل لص قد سرق طعاماً
فأسرع يحدّر في جوفه ما سرق ؛ هو الغنى الذي جعله يبتلع
بهذه الشرارة كأنما يشرب ما يأكل ، أو له حلق غير الحلق ،
ونحن — إذا أكلنا — نقص بالجز لا أدم معه ، وإذا ارتفعنا
عن هذه الحالة لم نجد إلا البشيع من الطعام وأصبناه عيناً أو فاسداً
لا يسوع في الحلق ، فإذا انخفضنا فليس إلا ما تتقمم من قشور
الأرض ومن ثبات الجزر كالدوااب والكلاب ؛ وإن لم نجد
ومسنا العدم وقفنا نتحم طعام قوم في دار أو نزل فنزد
يأكلون فنا كل معهم بأعيننا ، ولا نطعم أن نستطعمهم وإلا
أطعمونا ضرباً فنكون قد جئناهم بألم واحد فردّونا بآلين ، ونفقد

والنعمـة ، ثم أصلح ما أخلـ به الفقر من صفات الإنسـانية بالفـقراء ، وأحملـهم على ذلك حـملاً ، فيستـوى هـؤلاء وهـؤلاء ، ويـقارـبون على أصلـ في الدـم إن لم يـلـدهـ آبـاؤهـ ولـدـهـ القـانـون . أـلاـ إن سـقوـطـ أـمـتناـ هذهـ لمـ يـأـتـ إـلـاـ مـنـ تـعـادـيـ الصـفـاتـ الإنسـانيةـ فـيـ أـفـرـادـهـ ، فـتـقـطـعـ مـاـيـنـهـمـ ، فـهـمـ أـعـدـاءـ فـيـ وـطـنـهـمـ ، وـإـنـ كـانـ كـافـيـهـمـ أـهـلـ وـطـنـهـمـ وـمـقـىـ أـحـكـمـ الصـفـاتـ الإنسـانيةـ فـيـ الـأـمـةـ كـلـهـاـ وـدـانـيـ بـعـضـهـ بـعـضـاًـ صـارـ قـانـونـ كـلـ فـردـ كـلـتـينـ ، لـاـ كـلـمةـ وـاحـدةـ كـاـهـوـ الـآنـ . الـقـانـونـ الـآنـ (ـحـقـيـقـيـ)ـ وـنـحـنـ نـزـيـدـ أـنـ يـكـوـنـ (ـحـقـيـقـيـ وـوـاجـيـ)ـ وـمـاـ أـهـلـكـ الـفـقـراءـ بـالـأـغـنـيـاءـ ، وـلـاـ الـأـغـنـيـاءـ بـالـفـقـراءـ وـلـاـ الـمـكـوـمـيـنـ بـالـحـكـامـ إـلـاـ قـانـونـ الـكـلـمـةـ الـوـاحـدـةـ .

أـناـ أـحـمـدـ الـمـدـيرـ . . . لـسـتـ الـمـدـيرـ بـعـافـيـةـ نـفـسـ أـحـمـدـ ، وـلـاـ بـعـدـهـ وـبـطـنـهـ ، وـلـاـ بـعـاـيـدـ أـحـمـدـ لـنـفـسـهـ وـأـوـلـادـ . . . كـلـ ، أـناـ عـمـلـ اـجـتـمـاعـيـ مـنـظـمـ يـحـكـمـ أـعـمـالـ النـاسـ بـالـعـدـلـ ، أـناـ خـلـقـ ثـابـتـ يـوـجـهـ أـخـلـاقـهـمـ بـالـقـوـةـ ، أـناـ الـحـيـاةـ الـأـمـ مـعـ الـحـيـاةـ الـأـطـفـالـ الـأـخـوـةـ فـيـ هـذـاـ الـبـيـتـ الـذـيـ يـسـمـيـ الـوـطـنـ ، أـناـ الرـحـمـةـ ، عـنـدـيـ الجـنـةـ وـلـكـنـ عـنـدـيـ جـهـنـمـ أـيـضـاـ مـادـاـمـ فـيـ النـاسـ مـنـ يـعـصـيـ ، أـناـ بـكـلـ ذـلـكـ لـسـتـ أـحـمـدـ ، لـكـنـيـ الـأـصـلـاحـ .

هـذـاـ قـدـ صـرـتـ مـدـيرـاًـ أـعـسـ "ـ فـيـ الـطـرـيـقـ بـالـلـيـلـ وـأـتـقـدـ النـاسـ وـنـوـائـهـمـ .

مـنـ أـرـىـ ؟ـ هـذـاـ طـفـلـ وـأـخـتـهـ نـأـمـانـ عـلـىـ عـتـبـةـ الـبـنـكـ فـيـ حـيـةـ كـأـهـدـاـمـهـاـ الـرـقـعـةـ ، فـدـنـيـاـ تـعـزـقـتـ عـلـيـهـمـ ، قـمـ يـاـ بـنـيـ ، لـاـ تـرـعـ إـنـماـ أـنـاـ كـأـيـكـ ، تـقـولـ :ـ اـسـمـكـ أـحـمـدـ ، وـاسـمـ اـخـتـكـ أـمـيـنـةـ ؟ـ

تـقـولـ :ـ اـنـكـ مـانـتـ مـنـ الـجـمـوعـ ، وـلـكـنـ مـضـمـضـتـ عـيـنـكـ بـشـعـاعـ النـوـمـ ؟ـ

يـاـوـلـدـيـ الـمـسـكـيـنـيـنـ بـأـيـ ذـنـبـ مـنـ ذـنـبـكـ دـقـكـ الـأـيـامـ دـقـأـ وـطـحـتـكـ طـحـنـاـ ، وـبـأـيـ فـضـيـلـةـ مـنـ الـفـضـائـلـ يـكـوـنـ اـبـنـ فـلـانـ باـشـاـ وـبـنـتـ فـلـانـ باـشـاـ فـيـ هـذـاـ الـعـيـشـ الـلـيـنـ يـخـتـارـانـ مـنـهـ وـيـتـأـقـانـ فـيـهـ ، مـاـلـذـيـ ضـرـ الـوـطـنـ مـنـكـاـ فـتـمـوـتـاـ ، وـمـاـلـذـيـ نـفـعـ الـوـطـنـ مـنـهـ فـيـعـيشـاـ ؟ـ إـنـ كـنـتـ يـاـ بـنـيـ لـاـ تـمـلـكـ لـنـفـسـكـ الـأـنـتـصـارـ مـنـ هـذـهـ الـظـلـيمـةـ فـأـنـاـ أـمـكـهـاـكـ ، وـإـنـماـ أـنـاـ الـمـظـلـومـ إـلـىـ أـنـ تـنـتـصـرـ ، وـإـنـماـ أـنـاـ الـضـعـيفـ إـلـىـ أـنـ آـخـذـ لـكـ الـحـقـ .

إـلـىـ بـاـنـ فـلـانـ باـشـاـ وـبـنـتـ فـلـانـ باـشـاـ .

[الـبـقـيـةـ فـيـ أـسـفـلـ الصـفـحـةـ التـالـيـةـ]

مـعـرـكـةـ الـحـوـادـثـ إـلـاـ رـوـحـ الـنـعـمـةـ ، وـأـخـلـاقـ الـلـيـنـ فـيـ أـهـلـ الـلـيـنـ ؟ـ وـهـؤـلـاءـ لـمـ يـرـحـ الـشـرـقـ مـنـ هـنـيـةـ سـيـاسـيـةـ كـلـ حـادـثـ سـيـاسـيـةـ .

إـنـ لـلـحـكـمـ لـمـاـ وـدـمـاـ هوـ لـحـمـ الـحـاـكـمـ وـدـمـهـ ؟ـ فـانـ كـانـ صـلـبـاـ خـشـنـاـ فـيـهـ رـوـحـ الـأـرـضـ وـرـوـحـ السـمـاءـ فـذـاكـ ، وـإـلـاـ قـتـلـ الـلـيـنـ وـالـتـرـفـ الـحـكـمـ وـالـحـاـكـمـ جـمـيـعـاـ .ـ وـهـؤـلـاءـ الـحـكـامـ مـنـ أـوـلـادـ الـأـغـنـيـاءـ لـاـ يـكـوـنـ لـهـمـ هـمـ إـلـاـ أـنـ يـرـفـعـواـ مـنـ شـأـنـ أـنـفـسـهـمـ ،ـ إـذـ السـلـطـةـ درـجـةـ فـوـقـ الـغـنـيـ ،ـ وـمـنـ نـالـ هـذـهـ اـسـتـشـرـفـ لـتـلـكـ ،ـ فـاـذاـ جـمـعـهـاـ كـانـ مـنـهـاـ الـخـلـقـ الـظـالـمـ الـذـيـ يـصـورـ لـهـمـ الـاعـتـدـاءـ قـوـةـ وـسـطـوـةـ وـعـلـوـاـ ،ـ مـنـ حـيـثـ عـدـمـواـ الـخـلـقـ الـرـحـيمـ الـذـيـ يـصـورـ لـهـمـ هـذـهـ الـقـوـةـ ضـعـفـاـ وـجـبـنـاـ وـنـذـالـةـ .ـ إـنـ أـحـدـهـمـ إـذـاـ حـكـمـ وـتـسـلـطـ أـرـادـ أـنـ يـضـرـبـ ،ـ ثـمـ لـمـ تـكـنـ ضـربـتـهـ الـأـوـلـىـ إـلـاـ فـيـ الـبـدـأـ الـاجـتمـاعـيـ لـلـأـمـةـ ،ـ أـوـ فـيـ الـأـصـلـ الـأـدـبـيـ لـلـإـنـسـانـيـةـ .ـ وـيـحـرـصـونـ عـلـىـ مـاـبـهـ تـعـامـهـمـ ،ـ أـىـ عـلـىـ السـلـطـةـ ،ـ أـىـ عـلـىـ الـحـكـمـ ؛ـ فـيـ حـمـلـهـمـ ذـلـكـ عـلـىـ أـنـ يـتـكـلـفـواـ لـلـحـرـصـ أـخـلـاقـهـ ،ـ وـأـنـ يـجـمـعـهـمـ فـيـ أـنـفـهـمـ أـسـبـابـهـ ؟ـ مـنـ الـمـدارـةـ وـالـمـصـانـعـةـ وـالـمـهاـوـنـةـ ،ـ نـازـلـاـ فـنـازـلـاـ إـلـىـ دـرـكـ بـعـيدـ ،ـ فـيـنـشـرـونـ أـسـوـأـ الـأـخـلـاقـ بـقـوـةـ الـقـانـونـ مـادـاـمـوـاـ هـمـ الـقـوـةـ .ـ

ـ وـمـاـ تـرـيـدـ أـنـ يـصـنـعـ أـوـلـادـ الـأـغـنـيـاءـ يـاـ أـحـمـدـ ؟ـ

ـ أـمـاـ أـوـلـادـ الـأـغـنـيـاءـ فـيـجـبـ أـنـ يـبـاشـرـوـاـ الصـنـاعـةـ وـالـتـجـارـةـ لـيـجـدـوـاـ عـمـلـاـ شـرـيفـاـ يـصـبـيـونـ مـنـهـ رـزـقـهـمـ بـأـيـدـيـهـمـ لـاـ بـأـيـدـيـهـمـ ،ـ فـاـنـهـ وـالـلـهـ لـوـلـاـ الـعـمـيـ الـاجـتمـاعـيـ لـمـاـ كـانـ فـرـقـ بـيـنـ اـبـنـ اـمـيرـ مـتـبـطـلـ فـيـ أـمـالـكـ أـيـهـ مـنـ الـقـصـورـ وـالـضـيـاعـ وـابـنـ فـقـيرـ مـتـبـطـلـ فـيـ أـمـالـكـ الـمـجـلـسـ الـبـلـدـيـ مـنـ الـأـزـقـةـ وـالـشـوـارـعـ .ـ

ـ وـابـنـ اـمـيرـ إـذـاـ كـانـ بـنـجـارـاـ أـوـ حـدـادـاـ أـصـلـحـ السـوقـ وـالـشـارـعـ بـأـخـلـاقـ الـطـيـبـةـ الـلـيـنـةـ ،ـ وـتـعـفـفـهـ وـكـرـمـهـ ،ـ فـيـتـعـلـمـ سـوـادـ الـنـاسـ مـنـهـ الـأـمـانـةـ وـالـصـدـقـ ،ـ إـذـ هـوـ لـاـ يـكـذـبـ وـلـاـ يـسـرـقـ مـادـاـمـ فـوـقـ الـاضـطـرـارـ ،ـ وـلـاـ كـذـلـكـ اـبـنـ الـفـقـيرـ الـذـيـ يـضـطـرـهـ الـعـيـشـ أـنـ يـكـوـنـ تـاجـرـاـ أـوـ صـانـعـاـ فـتـكـوـنـ حـرـفـتـةـ الـتـجـارـةـ ،ـ وـهـيـ الـسـرـقـةـ ،ـ أـوـ الـصـنـاعـةـ وـهـيـ الـغـشـ ،ـ وـيـكـوـنـ فـيـ الـنـاسـ أـكـثـرـ عـمـرـ مـادـةـ كـذـبـ وـإـثـمـ وـلـصـوصـيـةـ .ـ

ـ آـهـ لـوـ صـرـتـ مـدـيرـاـ !ـ أـتـدـرـيـنـ مـاـذـاـ أـصـنـعـ ؟ـ

ـ مـاـذـاـ تـصـنـعـ يـاـ أـحـمـدـ ؟ـ

ـ أـعـمـدـ إـلـىـ الـأـغـنـيـاءـ فـأـرـدـهـمـ بـالـقـوـةـ إـلـىـ الـإـنـسـانـيـةـ ،ـ وـأـحـمـلـهـمـ عـلـيـهـ حـمـلاـ ،ـ وـأـصـلـحـ فـيـهـمـ صـفـاتـهـ الـتـيـ أـفـسـدـهـاـ الـتـرـفـ وـالـلـيـنـ